البَابُ العَاشر

النقد والنسيئة

ومن جملة العطاء ما يعطيه الحق سبحانه عباده من الخيرات ، فى مقابلة أعمالهم الصالحات ، كما أشار إلى ذلك فى أول الباب العاشر بقوله رضى الله عنه :

[جل ربنا أن يعامله العبد نقدًا فيجازيه نسيئة] .

قلت : النقد ما كان معجلا ، والنسيئة ما كان مؤخرًا ، ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئاً أن ينجز نقده ويزيد إحسانه ورفده ، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا ، فعوّضنا بها الجنة ، فمن باع نفسه وماله ونقدهما وسلمهما إليه عوضه الله جنة المعارف عاجلا ، وزاده جنة الزخارف آجلا ، مع ما يتحفه به من أنواع النعيم ، ودوام الشهود والنظر إلى وجهه الكريم .

فجل ربنا : أى تنزه وترفع أن يعاجله العبد نقدًا ، أى معجلا فيجازيه نسيئة ، أى مؤخرًا ، بل لابد أن يعجل له ما يليق به فى هذه الدار ويدخر له ما يليق به فى تلك الدار .

والذى عجل له سبحانه فى هذه الدار أمور :

منها : ما يدفع عنه من المضار ، ويجلب له من المنافع والمسار ، لقوله تعالى : (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)[1] وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)[2] وقال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[3] .

وقد يتعدى ذلك إلى عقبه كماتقدم .

ومنها : ما يشرق عليه من الأنوار ، ويكشف لقلبه من الأسرار ، وهى أنوار

---

(١) الأعراف : ١٩٦ . (٢) الطلاق : ٢ ، ٣ . (٣) يونس : ٦٢ .

التوجه وأنوار المواجهة ، قال تعالى : (يٰأَيُّها الذين آمَنوا إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقانًا)[١] . وهو نور يفرق بين الحق والباطل . وقال تعالى : (وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله)[٢] وقال تعالى : (الله وَلِيُّ الذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ)[٣] .

يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة ، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى ، ومن ظلمة الكون إلى نور المكوِّن .

ومنها : التوفيق والهداية لها قبل عملها ، حتى جعلك أهلا للوقوف بين يديه ، وهو الذى أبانه بقوله :

[كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا] .

قلت : لأن الملك لا يدعو لخدمته إلا من يريد أن يكرمه ، ولا يدخل لحضرته إلا من يريد أن يعظمه ، ولا ينسب له إلا أهل الفضل والتكرمة . (وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمته مَازَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)[٤] .

فالتوفيق لها أعظم منة وأكبر جزءًا على وجودها ، لأنها تحقق للعبد ثلاثًا :

أولها : تصحيح النسبة لمولاه بوجه ما .

الثانى : وجود الإقبال عليه بصورة ما .

الثالث : إقامة رسم العبودية فى الجملة ، والله أعلم ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

ومنها : ما يرد على قلبه حال عملها من المؤانسة به والقرب له ، وهو الذى ذكره بقوله :

[كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته] .

قلت : والذى فتحه على قلوبهم فى حالة العمل ثلاث : محاضرة أو مراقبة أو مشاهدة ، فالمحاضرة للطالبين ، والمراقبة للسائرين ، والمشاهدة للواصلين ،

---

(١) الأنفال : ٢٩ .
(٢) البقرة : ٢٨٢ .
(٣) البقرة : ٢٥٧ .
(٤) النور : ٢١ .

فالمحاضرة للعموم والمراقبة للخصوص والمشاهدة لخصوص الخصوص ، والكل يسمى خشوعًا .

قال بعضهم : الخشوع إطراق السر على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة ، والذوبان تحت سلطان الكشف والإمحاء عند غلبات التجلى اهـ ، ويختص المقام الثالث بقرة العين .

وقال الشيخ زروق : ما يجده فى حالة الطاعة ثلاث : أولها : وجود الأنس به فيها بروح إقباله ، ومنه ما يقع من الرقة والخشوع . الثانى : وجود التملق بين يديه ، وله حلاوة ينسى بها كل شىء . الثالث : حصول الفهم والفوائد العلمية والإلهامات اللدنية ، التى بها يترك كل شىء .

قال بعضهم : فى الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شىء ولم يستوحش أبدًا ، قيل : وما هى ؟ قال : معرفة الله .

وقالِ بعض العلماء : ليس فى الدنيا ما يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وكان بعضهم يقول : التملق للحبيب والمناجاة للقريب فى الدنيا ليس من الدنيا ، هو من الجنة أظهره الله فى الدنيا لا يعرفه إلا هم ، ولا يجده سواهم روحاً لقلوبهم اهـ .

ومنها : ما يجده من الثمرات بعد عملها وهو الذى أشار إليه بقوله :

[وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته] .

قلت : هذه المؤانسة التى يجدها العامل بعد العمل على ثلاثة أقسام : مؤانسة ذكر : وهو لأهل الفناء فى الأفعال . ومؤانسة قرب : وهو لأهل الفناء فى الصفات وهم أهل الاستشراف . ومؤانسة شهود : وهو لأهل الفناء فى الذات ، فالأول لأهل الإسلام ، والثانى لأهل الإيمان ، والثالث لأهل الإحسان . فمؤانسة الأول توجب له الفرار من الناس والوحشة منهم ، ومؤانسة الثانى توجب القرب لهم على حذر منهم ، ومؤانسة الثالث توجب الصحبة لهم ومخالطتهم ، لأنه يأخذ منهم ولا يأخذون منه . فالأول لا تليق به إلا العزلة لضعفه . والثانى تليق به الصحبة مع العفة ليتعلم بالقوة ، فهو يشرب منهم

ولا يشربون منه لبعده منهم بقلبه . والثالث لا تليق به إلا الصحبة لتحققه بالقوة ، فهو يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منه شيء ، يصفو به كدر كل شيء ولا يكدر صفوه شيء ، ومؤانسة الذكر توصل لمؤانسة القرب ، ومؤانسة القرب توصل لمؤانسة الشهود ، فمن صعد عقبة أفضت به إلى راحة ما بعدها .

قال بعض العارفين : ليس شيء من الطاعات إلا ودونه عقبة كئود يحتاج فيها إلى الصبر ، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة ، وإنما هى مجاهدة النفس ومخالفة الهوى ، ثم والله مكابدة فى ترك الدنيا ، ثم اللذة والتنعم : أى ثم تكون لذة الطاعة وتنعم المعرفة .

أنواع العبادة

ثم ينبغى لك أيها المريد ألا تقصد شيئًا من هذه الأمور التى يجازيك الحق تعالى بها كانت معجلة أو مؤجلة ، فإن ذلك نقص فى إخلاصك وناقض لصدق عبوديتك ، كما أشار إليه بقوله :

[من عبده لشيء يرجوه منه ، أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه ، فما قام بحق أوصافه] .

قلت : الناس فى عبادة الله باعتبار إخلاصهم على ثلاثة أقسام : فمنهم من يعبد الله خوفًا من عقوبته معجلة أو مؤجلة، أو طمعًا فى رحمته وحفظه عاجلا وآجلا وهم عوام المسلمين ، وفيهم قال عليه الصلاة والسلام :

« لَوْلاَ النَّارُ مَاسَجَد لله سَاجِدٌ » .

ومنهم : من يعبد الله محبة فى ذاته وشوقًا إلى لقائه ، لا طمعًا فى جنته وحفظه ، ولا خوفًا من ناره ونكاله ، وهم المحبون العاشقون من السائرين .

ومنهم : من يعبد الله قيامًا بوظائف العبودية ، وأدبًا مع عظمة الربوبية .

أو تقول : صدقًا فى العبودية وقيامًا بوظائف الربوبية ، وهم المحبون العارفون ، فالقسم الأول عبادته بنفسه لنفسه ، والثانى عبادته بنفسه لله ،

والثالث عبادته بالله لله ، ومن الله إلى الله . فمن عبد الله تعالى لشىء يرجوه منه فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو ليدفع عنه بطاعته ورود العقوبة فى الدنيا أو فى الآخرة ، فما قام بحق أوصاف الربوبية التى هى العظمة والكبرياء ، والعزة والغنى ، وجميع أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال إذ نعوت الربوبية من العظمة والجلال تقتضى خضوع العبودية بالانكسار والإذلال .

أرأيت إن لم تكن جنة ولا نار ألم يكن أهلا لأن يعبد الواحد القهار ؟ أرأيت من أنعم بنعمة الإيجاد والإمداد ، أليس أهلا لأن يشكره جميع العباد ؟ فمن كان عبدًا مملوكًا لسيده لا يخدمه فى مقابلة نواله ورفده ، بل يخدمه لأجل عبوديته ورقه ، وسيده لا محالة يقوم بمئونته ورزقه ، أيبرزك لوجوده ويمنعك من جوده ؟ أيدخلك داره ويمنعك إبراره ؟ لقد أسأت الظن بالرب الكريم إن اعتقدت أنك إن لم تعبده منعك من جوده العظيم ، لقد أجرى عليك منته ورزقه وأنت فى ظلمة الأحشاء ، ثم حين أظهرك لوجوده وبسط لك من جوده ، جعلك تتصرف فيه كيف تشاء وتصنع به ما تشاء .

ومما وجد مكتوبًا بقلم القدرة فى حجر فى الكعبة :

تَذَكَّرْ جَمِيلى فِيكَ إِذْ كُنْتَ نُطْفَةً
وَلَا تَنْسَ تَصْوِيرِى لِشَخْصِكَ فى الحشا
وَكُنْ وَاثِقًا بِى فى أُمُورِكَ كُلِّهَا
سَأَكْفِيكَ مِنْهَا مَايُخَافُ وَيُخْتَشَى
وَسَلِّمْ إِلَىَّ الْأَمْرَ وَاعْلَمْ بِأَنَّنِى
أُصَرِّفُ أَحْكَامِى وَأَفْعَلُ مَا أَشَا

فاستحى من الله أيها الإنسان أن تطلب أجرًا على عبادة أجراها عليك الواحد المنان ، واذكر قوله تعالى :

(الحَمْدُ لله الذى هَدَانَا لِهذَا وَمَاكُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله)[1]

---

(١) الأعراف : ٤٣ .

وقوله تعالى : (وَرَبُّك يَخْلُقُ مَايَشَاء وَيَخْتَارُ)[١] وقوله تعالى : (وَمَاتَشَاءونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ الله)[٢] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ كَالْعَبْد السُّوء ، إنْ خَافَ عَمِلَ ، وَلَا كالأجِير السُّوءِ ، إنْ لَمْ يُعْطَ الأُجْرَة لَمْ يَعْمَلْ » .

وقال سيدنا عمر رضى الله عنه : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه .

وقال وهب بن منبه : فى زبور داود عليه السلام يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نارٍ ، لو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلا أن أطاع » اهـ .

وفي أخبار داود أيضًا عليه السلام : إن الله أوحى إليه : إن أودّ الأوداء إلىّ من عبدنى لغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها اهـ .

ثم إن رفعت همتك عن طلب الحظوظ صبت عليك الحظوظ ، فقد ورد فى بعض الأخبار : إن الله يحفظ الأولاد وأولاد الأولاد بطاعة الأجداد ، لقوله تعالى : (وَكانَ أَبُوهُما صَالِحاً)[٣] .

فقد حفظ الحق تعالى كنزهما بصلاح أبيهما ، فقد صبت الحظوظ على الأولاد وهو حفظهم بترك الآباء الحظوظ . وكان سعيد بن المسيب يقول لولده : إنى لأطيل الصلاة من أجلك اهـ . ومعناه : إنى أعبده مخلصًا عله يحفظك ، ثم إن مدد الحق وهو لطفه وإبراره جارٍ على الطائعين فى كل وقت وحين ، سواء أعطاهم فى الحس أو منعهم ، وسواء بسطهم أو قبضهم . وهو ظاهر لمن يفهم عن الله كما أشار إليه بقوله :

[متى أعطاك أشهدك برّه ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرِّف إليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك] .

قلت : من أسمائه تعالى « اللطيف والرحيم » فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه فى كل وقت وعلى كل حال ، سواء أعطاهم أو منعهم ، وسواء بسطهم أو قبضهم ، فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم برّه وإحسانه ، فعرفوا أنه سبحانه بار بعباده لطيف بخلقه ، رحيم كريم جواد محسن ، فتعْظُم محبتهم فيه ، ويكثر

---

(١) القصص : ٦٨ . (٢)الإنسان : ٣٠ . (٣) الكهف : ٨٢ .

شوقهم واشتياقهم إليه ويكثر شكرهم ، فيزداد نعيمهم . وفى هذا مالا مزيد عليه من البر والإحسان ، والجود والامتنان ، وإن منعهم أو قبضهم أشدهم قهره وكبرياءه فعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل ، فخافوا من سطوته ، وذابوا من خشيته ، وخضعوا تحت قهره ، فدامت عبادتهم ، وقلت ذنوبهم ، ومحيت مساويهم ، واضمحلّت خطيئتهم ، فوردوا يوم القيامة خفافًا مطهَّرين فرحين مبهجين ، إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين ، فمن أخافه فى الدنيا أمنه يوم القيامة ، ومن أمَّنه فى الدنيا فاغتر أخافه يوم القيامة كما فى الحديث .

فلا تتهم ربك أيها العبد فى المنع ولا فى العطاء ، فإنه متى أعطاك أشهدك بره ورحمته وكرمه ، فعرفت بذلك أنه بر كريم رءوف رحيم ، فتتعلق بكرمه وجوده دون غيره فتتحرر من رق الطمع ، ويذهب عنك الغم والجزع وتتخلق أيضًا بوصف الكرم والرحمة والإحسان ، فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه . وفى الحديث : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الرَّحْمٰنِ » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان خلق رسول صلى الله عليه وسلم القرآن ، والقرآن فيه أوصاف الرحمن ، فكأنها قالت كان خلقه خلق الرحمن ، إلا أنها احتشمت الحضرة وتأدبت مع الربوبية . ومتى منعك أو قبضك أشهدك قهره وكبرياءه ، فعرفت أنه قهار جبار فيعظم خوفك وتشتد هيبتك وحياؤك منه ، فلا جرم أن الله يعظمك ويكرمك ويحفظك ويستحيى منكم كما استحييت منه ، فإن الله ينزل عبده على قدر منزلته منه ، وإنما يطيع العبد ربه على قدر معرفته به وخوفه منه ، فهو سبحانه وتعالى فى كل ذلك من إعطاء ومنع وقبض وبسط متعرف إليك ، أى طالب منك أن تعرفه بصفاته وأسمائه ، وما من اسم من أسمائه تعالى إلا اقتضى ظهور ما يطلبه .

فاسمه الكريم اقتضى الإعطاء والإحسان وهو ظاهر فى خلقه . واسمه المانع اقتضى ظهور المنع ، فظهر فى عباده أيضًا . واسمه المنتقم اقتضى ظهوره فى قوم وجههم لمخالفته . واسمه القهار اقتضى ظهوره فى قوم يقهرهم على ما يريد من منع أو غيره ، وظهر قهره أيضًا فى عباده بالموت ، فهو من مقتضى اسمه القهار . وهكذا كل اسم يقتضى ظهوره فى الوجود ، وكلها فى بنى آدم ، فإذا

تحققت هذا فى حالة الإعطاء والمنع علمت أيضًا أنه تعالى مقبل بوجود لطفه وإبراره عليك ، إذ هو متعرف إليك فى كل شيءٍ ومقبل عليك فى كل وجه ، فاطلب أيضًا أنت معرفته فى كل حال ، واعرف منته عليك فى الجمال والجلال ، وأقبل عليه بكليتك ، واستسلم لقهره بروحك وبشريتك ، تكن عبده حقًا وهو ربك حقا وصدقا ، والله تعالى أعلم .

ويؤخذ من هذه الحكمة أن المدار إنما هو على قوة الروحانية التى هى المعرفة فى الجلال والجمال لا على قوة البشرية ، لأن بمنعه يحصل للعبد الكمال . وبالله التوفيق .

ثم هذا كله إنما يذوقه من يفهم عن الله كما تقدم ، وإليه أشار بقوله :

[**إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه**] .

قلت : لأن الفهم عن الله يقتضى وجود المعرفة به ، ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه فى الجلال والجمال ، والمنع والعطاء ، والقبض والبسط .

وأما إن كان لا يعرفه إلا فى الجمال ، فهذه معرفة العوام الذين هم عبيد أنفسهم ، فإن أعطوا رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون .

وأيضا من ثمرات المعرفة : التسليم والرضا لما يجرى به القضاء . ومن ثمرات المحبة والهوى : الصبر عند الشدائد والبلوى :

تَدَّعى مَذْهَبَ الهَوَى ثُمَّ تَشْكُو أىُّ دَعْوَاكَ فى الهَوَى قُلْ لى أينا
لَوْ وَجَدْنَاكَ صَابِرًا لِهَوانا لمَنَحنــاكَ كُــلَّ مَــاتَتَمَنَّى

فلا يكون المحب صادقًا فى محبته ، ولا العارف صادقا فى معرفته ، حتى يستوى عنده المنع والعطاء ، والقبض والبسط ، والفقر والغنى ، والعز والذل ، والمدح والذم ، والفقد والوجد ، والحزن والفرح ، فيعرف محبوبه فى الجميع كما قال القائل :

* حَبِيبِى وَمَحْبُوبِى عَلَى كُلِّ حالةٍ *

ويرضى ويسلم فى الجميع ، فإن لم يجد ذلك عنده سواء فلا يدعى مرتبة العشق والهوى ، فيعرف قدره ولا يتعدى طوره ، ولا يترامى على مراتب

الرجال . من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان ، ولابن الفارض رضى الله عنه :

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تحْيا سَعِيدًا فَمُتْ بِهِ
شَهِيدًا وَإِلَّا فَالْغَرامُ لَهُ أَهْلُ

وقال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : لا يصح الفقر للفقير حتى تكون فيه خصلتان : إحداهما الثقة بالله ، والأخرى الشكر لله فيما روى عنه مما ابتلى به غيره من الدنيا .

وقيل لبعضهم : ما الزهد عندكم ؟ قال : إذا وجدنا شكرنا ، وإذا فقدنا صبرنا فقال هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ، فقال وما الزهد عندكم أنتم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا ، فهذا هو الفهم عن الله حيث شكر حين الفقد ، فقد عد الفقد نعمة ، والفاقة غنى ، لما يجد فيها من المواهب والأسرار ، ولما يترقب بعدها من ورود الواردات والأنوار ، ولو لم يكن إلا التفرغ من الشواغل والأغيار ، وبهذا تزكو الأحوال ، وتعظم الأعمال ، ويتأهل صاحبها للقبول والإقبال ، وإلا فلا عبرة بصورة وجودها مع عدم قبولها ، كما نبه على ذلك بقوله :

[ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول] .

قلت : لا عبرة بالطاعة إذا لم يصحبها قبول ، كما لا عبرة بالسؤال حيث لم يحصل به مأمول ، إذ الطاعة إنما هى وسيلة لمحبة المطاع ، وإقباله على المطيع ، بحيث يفتح فى وجهه الباب ، ويرفع عن قلبه وجود الحجاب ، ويجلسه على بساط الأحباب ، فإذا فتح لك باب العمل ، وبلغت فى تحصيله غاية الأمل ، غير أنك لم تجد له ثمرة ، ولم تذق له حلاوة ، من الأنس بالله والوحشة مما سواه ، ومن الغنى به والانحياش إليه ، والاكتفاء بعمله ، والقناعة بقسمته ، فلا تغتر بذلك أيها المريد ، فربما فتح لك باب طاعته ، وأنهضك إلى خدمته ، ولم يفتح لك باب القبول ، ومنعك بها من الوصول ، حيث اعتمدت عليها ، وركنت إليها ، وأنست بها ، وأشغلتك حلاوتها عن الترقى إلى حلاوة شهود المنعم بها .

ولذلك قال بعضهم : احذروا حلاوة الطاعات فإنها سموم قاتلة ، لأنها تقبض صاحبها فى مقام الخدمة ، ويحرم من مقام المحبة . وفرق كبير بين من شغله بخدمته ، وبين من اصطفاه لمحبته ، واجتباه لحضرته .

قد يكون الذنب سبب الوصول

فإجراء الذنب على العبد أحسن من مثل هذه الطاعة التى تكون سبب الحجاب ، كما نبه عليه بقوله :

[**وربما قضى عليك الذنب فكان سببًا فى الوصول**] .

قلت : وذلك أن العبد إذا كان سائرًا لمولاه ، قاصدًا لوصول حضرة حبيبه ورضاه فقد يحصل له كلل ، أو يصيبه ملل ، أو يركبه كسل ، فسلط الحق عليه ذنبًا ، أو تغلبه نفسه فيسقط ، فإذا قام من سقطته جد فى سيره ، ونهض من غفلته ، ونشط من كسله ، فلا يزال جادًّا فى طلب مولاه غائبًا عما سواه ، حتى يدخل حضرته ويشاهد طلعته ، وهى الحضرة التى هى تجليات الحق وأسرار ذاته . ومثال ذلك رجل مسافر أصابه فى الطريق نوم أو كسل فيسقط فيضربه حجر ، فإذا قام ذهب كسله وجد فى سيره .

وفى الحديث : « رُبَّ ذَنْبٍ أَدْخَلَ صَاحِبَهُ الجَنَّةَ ، قَالُوا : وَكَيْفَ ذلِكَ يَارَسُولَ الله ؟ قالَ : لَايَزَالُ تَائِبًا فَارًّا مِنْهُ خَائِفاً مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَموتَ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِى نفسِى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » اهـ .

وقال صلى الله عليه وسلم فى شأن الطاعة التى لم تقبل :

« رُبَّ صَائمٍ لَيْسَ لَهُ مَنْ صِيَامِهِ إلا الجوعُ ، وَقَائمٍ لَيْسَ له مِنْ قِيَامِهِ إلَّا السَّهَرُ » .

فمثل هذه الطاعة المعصية التى يصحبها الانكسار أحسن منها بكثير ؛ كما أبان ذلك بقوله :

[معصية أورثت ذلا وافتقارًا ، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا] .

قلت : إنما كانت المعصية التى توجب الانكسار أفضل من الطاعة التى توجب الاستكبار ، لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلل والانكسار : « أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهم مِنْ أَجْلِي » .

فإذا خلت الطاعة من هذه المعانى واتصفت بأضدادها ، فالمعصية التى توجب هذه المعانى ، وتجلب هذه المحاسن أفضل منها ، إذ لا عبرة بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية وإنما العبرة بما ينتج عنهما :

« إِنَّ الله لَا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَلَا إلى أَعْمَالِكُمْ ، وَإنما يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ » .

فثمرة الطاعة هى الذل والانكسار ، وثمرة المعصية هى القسوة والاستكبار ، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق ، وصارت الطاعة معصية والمعصية طاعة . ولذلك قال المحاسبى رضى الله عنه : إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم ، فإذا تكبر العالم أو العابد وتواضع الجاهل والعاصى وذل هيبة لله عز وجل وخوفًا منه ، فهو أطوع لله عز وجل من العالم والعابد بقلبه اهـ .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل إساءة أدب تثمر أدبًا فليست بإساءة أدب . وكان رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة .

وكان رضى الله عنه يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله ، حتى إنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالى به ، وربما دخل عليه عاص فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله وناظر لفعله ، وذلك العاصى دخل بكثرة معصيته وذلته ومخالفته ، قاله المصنف فى لطائفه .

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : نوديت فى سرى : خزائنى مملوءة بالخدمة ،

فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ : الْعُجْبُ » كذا فى الصحيحين ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لَوْلَا أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ مِنَ الْعُجْبِ مَاخَلَّا الله بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَذَنْبٍ أَبَدًا » .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : انكسار العاصى خير من صولة المطيع .

وقال شيخ شيوخنا رضى الله عنه : معصية بالله خير من ألف طاعة بالنفس اهـ .

ومعنى كلام الشيخ : أن العبد إذا أجريت عليه زلة لم يقصدها بقلبه ، وإنما جرته القدرة إليها رغمًا على أنفه ثم ندم وانكسر ، فهى فى حقه خير من ألف طاعة يشهد فيها نفسه ويتبجح بها على عباد الله ، ولله در صاحب العينية حيث يقول :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِى حَيْثُ أَسْلَمَنِى الهوَى ... وَمَالِىَ عَنْ حُكْمِ الْحَبِيبِ تَنَازُعُ

فَطَوْرًا تَرَانِى فى الْمَسَاجِدِ رَاكِعًا ... وَإِنِّى طَوْرًا فى الكَنَائِسِ رَاتِعُ

أَرَانِى كالآلاتِ وَهْوَ مُحَرِّكِى ... أَنَا قَلَمٌ والإِقتِدَارُ أَصَابِعُ

وَلَسْتُ بِجَبْرِىٍّ وَلكن مُشَاهِدٌ ... فِعَالَ مُرِيدٍ مَا لَهُ مَنْ يُدَافِع

فَآوِنَةً يَقْضِى عَلَىَّ بِطَاعَةٍ ... وَحِينًا بِمَا عَنْهُ نَهَتْنَا الشَّرَائِعُ

لِذَاكَ تَرَانِى كُنْتُ أَتْرُكُ أَمْرَهُ ... وَآتِى الذى أُنْهَاهُ وَالجَفْنُ دَامِعُ

وَلِى نُكتَةٌ غَرَّاءُ سَوْفَ أَقُولُهَا ... وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَرْعَوِيهَا المَسَامِعُ

هِىَ الفَرْقُ مَا بَيْنَ الْوَلِىِّ وَفَاسِقٍ ... تَنَبَّهْ لَهَا فَالأَمْرُ فيه فَظَائِعُ

وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَّهُ قَبْلَ وَقْعِهِ ... يُخَبِّرُ قَلْبى بِالذِى هُوَ وَاقِعُ

فَأَجْنِى الذِى يَقْضِيه فىَّ مُرَادُهَا ... وَعَيْنِى لَهُ قَبْلَ الفِعَالِ تُطَالِعُ

فَكُنْتُ أَرَى مِنْهَا الإِرَادَةَ قَبْلَ مَا ... أَرَى الفِعْلَ مِنِّى وَالأَسِيرُ مُطَاوِعُ

١٠ فآتِي الذِى تهْوَاهُ نَفْسِى وَمهجَتِى لِذَلِكَ فى نَارِ حَوَتْها الأَضَالِعُ
إِذَا كُنْتُ فى حُكْمِ الشَّرِيعَة عَاصِيًا فَإِنِّىَ فى عِلْمِ الْحقيقَةِ طَائِعُ

فأشار إلى الفرق بين معصية الولى ومعصية الفاسق ، وذلك من ثلاثة أوجه : الولى لا يقصدها ولا يفرح بها ولا يصرّ عليها ، والفاسق بالعكس فى الجميع .

وقيل للجنيد : أيزنى العارف ؟ فقال :

(وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)[1] .

لكن معصية الولى حدها الظاهر . ولذلك قال ابن عطاء الله : ليت شعرى لو قيل له أتتعلق همة العارف بغير الله لقال لا اهـ .

ولما كانت النعم تقتضى من العبد شكرها ، وشكرها هو العمل بطاعة الله فيها . قال الجنيد : الشكر ألا يعصى الله بنعمه . بين الشيخ أصول النعم وفروعها فقال :

[نعمتان ما خرج موجود عنهما ولابد لكل مكون منهما : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد] .

قلت : أما نعمة الإيجاد فهى الإظهار من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، أو من عالم الأمر إلى عالم الخلق ، أو من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح ، أو من عالم القدرة إلى عالم الحكمة ، أو من عالم التقدير إلى عالم التكوين .

وأما نعمة الإمداد : فهى قيامه تعالى بالأشياء بعد وجودها ، وإمداده إياها بما تقوم به بنيتها ، وهاتان النعمتان عامتان . واختص الإنسان بما اجتمع فيه من الضدين ، وهما النور والظلمة ، والطاقة والكثافة ، فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم فى عالم القدم لم تتمتع بنعمتين : نعمة الأشباح ، ونعمة الأرواح ، ولو تجلى فيك بوجهة واحدة لكنت ناقصًا فى شهود المعرفة ، لأن مزية الآدمى فى المعرفة أعظم ، إذ بقدر المجاهدة يكون الترقى فى المشاهدة ، لما فيه من الكثافة واللطافة ، فكلما لطف من كثافة ترقى فى مشاهدة ربه ، ولما فيه من النور والظلمة ، فكلما انتفت الظلمة قوى النور بخلاف غيره من الجن والملائكة

---

(١) الأحزاب : ٣٨ .

غير المقربين ، قال الله تعالى فى حق الملائكة :

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ معْلُومٌ)[1] .

فما مثل الآدمى إلا كياقوتة سوداء وهى أعظم اليواقيت ، كلما صقلتها أشرقت وزاد نورها وجمالها ، ومثل الملائكة كالزجاج إذا صقل مرة كفاه ولا يزيد نوره على أصله .

فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليهْ مْن العدم أو من اللطافة بعد قبضة القدم لم يكن لك مزية على غيرك .

ومما يدلك على أن تجلى الآدمى أعظم اختصاصه بالجنة والنظر ، قال تعالى :

(وَتَرَى الملائِكَةَ حَافِّين مِنْ حَوْلِ الْعَرش)[2] .

والكلام إنما هو مع الخواص ، فخواص الآدمى ، أعنى الأنبياء أعظم من خواص الملائكة ، وخواص الملائكة أعنى المقربين أعظم من خواص الآدمى أعنى العارفين ، والعارفون أعظم من عوام الملائكة ، وعوام الملائكة أعظم من عوام بنى آدم والله تعالى أعلم . فأنعم الحق سبحانه عليك أيها الإنسان أولا بنعمة الإيجاد ، وأصحبك الرأفة والوداد لتَظهر مزيتُك وتكمُل نعمتك ، ثم أنعم عليك ثانيًا بنعمة الإمداد حسية ومعنوية .

أما المدد الحسى ، فغذاء البشرية من أول النشأة إلى منتهاها . وأما المدد المعنوى : فغذاء الروح من قوت اليقين والعلوم والمعارف والأسرار .

ثم إن هذا المدد المعنوى من حيث هو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : منه ما لا يزيد ولا ينقص ، وهو مدد الملائكة . قال تعالى فيهم :

(وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) .

ومنه ما يزيد وينقص ، وهو مدد عوام بنى آدم . ومنه ما لايزيد ولا ينقص ، وهو مدد خواصهم كالرسل والأنبياء وأكابر الأولياء ، ومن تعلق بهم ممن دخل تحت حضانتهم ، ولزم عشهم من الفقراء والمريدين السائرين ، فمددهم فى

---

(١) الصافات : ١٦٤ . (٢) الزمر : ٧٥ .

الزيادة على الدوام ، وهذا المدد ثابت للروح قبل اتصالها بالبشرية ، فذلك أقرت بالربوبية فى عالم الذر .

قال فى التنوير : اعلم أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك ، وقام لك فى كل ذلك بوجود إبرارك ، فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير يوم قال :

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)[1] .

ومن حسن تدبيره لك أن عرّفك به فعرفته ، وتجلى لك فشهدته ، واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته فوحدته ، ثم إنه جعلك نطفة مستودعة فى الأصلاب ، تولاك بتدبيره هنالك حافظًا لك وحافظًا لما أنت فيه ، موصلا لك المدد بواسطة ما أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم ، ثم قذفك فى رحم الأم فتولاك بحسن التدبير ، وجعل الرحم قابلة لك أرضا يكون فيها نباتك ، ومستودعًا تعطى فيها حياتك ، ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما فكنت عنهما لما بنيت عليه الحكمة الإلهية من أن الوجود كله مبنى على سر الازدواج ثم جعلك بعد النطفة علقة مهيأة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه ، ثم بعد العلقة مضغة ، ثم فتق سبحانه فى المضغة صورتك وأقام فيها بنْيتك ، ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك ، ثم غذاك بدم الحيض فى رحم الأم فأجرى عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود ثم أبقاك فى رحم الأم حتى قويت أعضاؤك واشتدت أركانك ، ليهيئك إلى البروز إلى ما قسم لك أو عليك ، وليبرزك إلى دار يتعرف فيها بفضله وعدله إليك ، ثم لما أنزلك إلى الأرض ، علم سبحانه أنك لا تستطيع أن تتناول خشونات المطاعم وليس لك أسنان ولا أرحى تستعين بها على ما أنت طاعم ، فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف ، ووكل بهما مستحث الرحمة التى جعلها فى قلب الأم ، فكلما وقف اللبن عن البروز استحثته الرحمة التى جعلها لك فى الأم مستحثًا لا يفتر ومستنهضًا لا يقصر ، ثم إنه شغل الأب والأم بتحصيل مصالحك والرأفة عليك والرحمة والنظر بين المودة منهما إليك ، وما هى إلا رأفته ساقها للعباد فى مظاهر الآباء والأمهات تعريفًا بالوداد ، وفى حقيقة الأمر ما كفلتك إلا ربوبيته ،

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

وما حضنتك إلا ألوهيته . ثم ألزم الأب القيام بك إلى حين البلوغ وأوجب عليه ذلك رأفة منه بك ، ثم رفع قلم التكليف عنك إلى أوان تكمل الأفهام ، وذلك عند الاحتلام ، ثم إلى أن صرت كهلا لم يقطع عنك نوالا ولا فضلا ، ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة ، ثم إذا قدمت عليه ، ثم إذا حشرت إليه ، ثم إذا أقامك بين يديه ، ثم إذا سلمك من عقابه ، ثم إذا أدخلك دار ثوابه ، ثم إذا كشف عنك وجود حجابه وأجلسك مجالس أوليائه وأحبابه . قال سبحانه :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)[1] .

فلأى إحسانه تشكر ؟ ولأى أياديه تذكر واسمع قوله سبحانه :

(وَمَا بِكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)[2] .

تعلم أنك لم تخرج عن إحسانه ، ولن يعدوك وجود فضله وامتنانه اهـ كلامه فى التنوير ، وهو شرح لهذه الحكمة لاشتماله على النعمتين إيجادًا وإمدادًا .

ومن نعمة الإمداد المعنوى نعمة الإسلام والإحسان ، وحفظ ذلك وإدامته علينا فى كل وقت وحين ، وزيادة الترقى فى المعرفة واليقين ، إلى يوم الدين ، فالحمد لله رب العالمين .

ثم المقصود بالنظر إلى هاتين النعمتين هو الإنسان وإن كانتا عامتين فى جميع الأكوان ، إذ هو المطلوب بشكرها والتحدث بذكرها ، ولذلك خصه بالخطاب كما أشار إلى ذلك بقوله :

[أنعم عليك أولا بالإيجاد ، وثانيًا بتوالى الإمداد] .

قلت : توالى الإمداد هو تتابعه واتصاله ، سواء كان حسيًّا أو معنويًّا ، ففى كل ساعة ولحظة أنت مفتقر إلى أمداده قلبًا وقالبًا ، كما أبان ذلك بقوله :

[فاقتك لك ذاتية ، وورود الأسباب مذكرة لك بما خفى عليك منها ، والفاقة الذاتية لا ترفعها الغوارض] .

قلت : الفاقة الذاتية هى الأصلية الحقيقية ، والأسباب المحركة لها هى

---

(١) القمر : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) النحل : ٥٣ .

العوارض الجلالية ، وهى كل ما يقهر النفس ويزعجها عن حظوظها وتصرفاتها العادية ، وإنما كانت فاقتنا ذاتية لا تفارقنا ساعة واحدة ، لأن نشأتنا مركبة من حس ومعنى ، ولا يقوم الحس إلا بالمعنى ، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء ، فأشباحنا مفتقرة في كل لحظة إلى نعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد ، وما الحكمة إلا بالقدرة ، ولا البشرية إلا بالروحانية . والروح سر من أسرار الله ، قال الله تعالى : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِى)[1] .

فالبدن قائم بالروح ، والروح أمر من أمر الله ، وكل شيء قائم بأمر الله ، فافتقار البشرية للروحانية حاصل على الدوام ، قال تعالى فى نعمة الإيجاد :

(يٰأَيُّها الناسُ أَنْتُم الْفُقراء إِلَى الله والله هُوَ الْغَنِيُّ الحميدُ)[2] .

فهذا هو الافتقار إلى نعمة الإيجاد ، ثم قال فى نعمة الإمداد :

(إِنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ وَيأْتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ)[3] .

وهذا هو افتقارنا إلى نعمة الإمداد ، وقال تعالى فى افتقار بقية العالم :

(إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ)[4] .

فالكون كله قائم بأمر الربوبية ، مظهر من مظاهر لا قيام له بدونها .

قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : الحق سبحانه مستبد والوجود مستمد ، والمادة من عين الجود ، فإذا انقطعت المادة : أى مادة المعنى انهد الوجود اهـ . والمراد بالوجود ظهور الحس ، وعين الجود هو المعانى اللطيفة القديمة .

يعنى أن الحق تعالى مستبد أى قائم بنفسه ، وظهور تجلياته مستمدة من باطن صفاته ، ومادة الأشياء كلها من عين الجود وهى نعمة الإيجاد والإمداد ، فإذا انقطعت المادة ، أى مادة المعنى من الحس اضمحل الحس واضمحلت الأكوان ، فلو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته ، ففاقتك ، أى افتقارك أيها الإنسان لك

---

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) فاطر : ١٥ .
(٣) فاطر : ١٦ .
(٤) فاطر : ٤١ .

ذاتية ، أى أصلية حقيقية لكنها خفية ، وورود الأسباب المحركة لظهور تلك الفاقة وهى الشدة والحيرة ، وكل ما يلجئك إلى مولاك مذكرة لك ما خفى عنها منها .

يعنى أن فاقتك لا تفارقك إذ كل لحظة تفتقر إلى من يمدك بالوجود فى الساعة الثانية إلا أنها خفية لا تذكرها حتى يتحرك عليك أسباب ظهورها كالفتن والمرض وغيرهما ، والفاقة الأصلية الذاتية لا ترفعها العوارض وهى الصحة والعافية ، فما دام العبد فى العافية ففاقته خفية لا يتفطن لها إلا العارفون لأنه لا يزول اضطرارهم ، فإذا قام عليه جلال أو محرك ظهر افتقاره وتحقق اضطراره مع أنه دائم فى الفاقة حسه ومعناه ، والله تعالى أعلم .

ثم إن رجوع الشىء إلى أصله مرغب فيه وخروجه عن أصله لا خير فيه ، وأصلك أيها الإنسان هو الفاقة والاضطرار والذلة والانكسار ، فكل ما يردك إلى أصلك فهو لك فى غاية الحسن والاختيار ، كما أبان ذلك بقوله :

[**خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وتُرد فيه إلى وجود ذلتك**] .

قلت : إنما كان شهود الفاقة هو خير أوقاتك لوجهين :

أحدهما : ما فى ذلك من تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية ، وفى ذلك شرف العبد وكماله ، إذ بقدر تحقيق العبودية فى الظاهر يعظم شهود الربوبية فى الباطن .

أو تقول : بقدر العبودية فى الظاهر تكون الحرية فى الباطن .

أو تقول : بقدر الذل فى الظاهر يكون العز فى الباطن .

أو تقول : بقدر وضع الظاهر يكون رفع الباطن . من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره . وانظر أشرف خلق الله وهم الأنبياء بماذا خاطبهم الله تعالى ، فما خاطبهم إلا بالعبودية ، قال الله تعالى :

(سُبْحَانَ الذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)[1] ، (واذْكُرْ عِبَادَنَا إبْراهيم

---

(١) الإسراء : ١ .

وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ)[١] ، (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْد)[٢] ، (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيوب)[٣] .

وقد اختارها نبينا صلى الله عليه وسلم حين خير بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عبدًا فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا ، فدل على أن أشرف حال الإنسان هو العبودية ، فبقدر ما يتحقق بها فى الظاهر يعظم قدره فى الباطن ، ومهما خرج منها فى الظاهر بإظهار الحرية أدبته القدرة وردته القهرية حتى يرجع إلى أصله ويعرف ماله وعليه .

الوجه الثانى : ما فى الفاقة من مزيد المدد وطلب الاستمداد :

(إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمسَاكِينِ)[٤]

إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ، كما يأتى إن شاء الله . وقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذلة ، وتحقيق الضعف والقلة ، قال الله تعالى :

(ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)[٥] ، وقال تعالى : (وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ)[٦] .

وجعل الخذلان وعدم النصر والمعونة فى إظهار الحرية والقوة . قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أعجبتكم كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِين)[٧] .

وذلك لما وقع من بعض الصحابة الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام ، فأدبهم الله بإظهار الحرية ، ولكن عمت الفتنة .

---

(١) ص : ٤٥ .
(٢) ص : ١٧ .
(٣) ص : ٤١ .
(٤) التوبة : ٦٠ .
(٥) آل عمران : ١٢٣ .
(٦) الأعراف : ٨٥ .
(٧) التوبة : ٢٥ .

قال تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)[١] .

وهذا وجه ذكر الآية قبل ذكر القضية ، والله تعالى أعلم .

فإذًا خير أوقاتك أيها المريد وقت تشهد فيه وجود فاقتك : أى ظهورها وإلا فهى كامنة فيك كما تقدم ، وتسمى عند المتأخرين الحيزة وهى الشدة ، فهى خير لك من ألف شهر إن عرفت فيها ربك .

والمعرفة فيها أن تسكن عن التحرك والاضطراب ، وتقطع النظر عن التعلق بالأسباب ، وترجع فيها إلى مسبب الأسباب ؛ وتعلق همتك برب الأرباب ، وتكتفى بعلم الله الكريم الوهاب . ولقد سمعت شيخنا اليزيدى رضى الله عنه يقول : العجب من الإنسان يرى الخير أو الفتح واصلا إليه وقادمًا عليه ثم يقوم يبادر بسد الباب فى وجهه ، وهو أن يرى الفاقة قادمة عليه فيبادر إلى الأسباب التى تقطعها عنه قبل وصولها ، فقد كان الربح واصلا إليه فقام فردّه أو ما هذا معناه . وخير أوقاتك أيضًا وقت تشهد فيه وجود ذلتك كما تقدم ، لأنه سبب عزك ونصرك ، إذ الأشياء كامنة فى أضدادها . العز فى الذل ، والغنى فى الفقر ، والقوة فى الضعف ، والعلم فى الجهل : أى فى إظهار الجهل ، إلى غير ذلك ، قال تعالى : (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)[٢] .

وقال تعالى فى حق الصحابة رضى الله عنهم حين كانوا فى حالة الاستضعاف والإذاية تسلية لهم :

(وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلوا الصَّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)[٣] الآية .

ومما جرت به العادة الإلٰهية أن الفرج على قدر الضيق ، فبقدر الفقر يكون الغنى ، وبقدر الذل يكون العز ، وبقدر العسر يكون اليسر .

والحاصل : بقدر الجلال يكون الجمال عاجلا وآجلا ، قال تعالى :

---

(١) الأنفال : ٢٥ . (٢) القصص : ٥ . (٣) النور : ٥٥ .

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)[1] وقال ﷺ : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ » .

كما فى الحديث حيث قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضى الله عنهما : « وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَع الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » اهـ .

خير أوقاتك

ثم إذا صح فقرك إليه وتحققت ذلتك بين يديه أتحفك بأنسه وزجّ بك فى حضرة قدسه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به] .

قلت : هذه سنة الله تعالى فى خلقه إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره ، ويتحفه بمعرفته ، أوحشه من خلقه ، وشغله بخدمته ، وألهمه ذكره ، حتى إذا امتلأ قلبه بالأنوار وتمكن من حلاوة الشهود والاستبصار ، رده إليهم رحمة لهم ، لأنه حينئذ لقوته يأخذ منهم ولا يأخذون منه ، ومثاله فى الحس كفتيلة أشعلتها ، فمادامت ضعيفة لابد أن تحفظها من الريح وتقصد بها المواضع الخفية ، فإذا اشتد نورها وأشعلتها فى الحطب صعدت بها إلى ظهور الجبال ، فبقدر ما يصيبها الريح يعظم اشتعالها ، كذلك الفقير مادام فى البداية لا يليق به إلا الوحشة من الخلق والفرار منهم ، فإذا تمكن فى الشهود فلا يليق به حينئذ إلا الخلطة معهم ، لأنهم لا يضرونه .

فمتى أوحشك أيها الفقير من خلقه وعزلك عنهم فى قلبك ، فاعلم أنه تعالى أراد أن يؤنسك به ويغنيك بمعرفته ، فقد كان عليه الصلاة والسلام حين قرب أوان النبوة والرسالة حبب إليه الخلوة ، فكان يخلو بغار حراء . وحكمة ذلك تصفية البواطن من الشواغل والشواغب ، لتتهيأ لقبول ما تتحمله من الأسرار

---

(١) الشرح : ٥ ، ٦ .

والمواهب ، فإذا تطهر من الأكدار ملئ بالأنوار ، فأشرقت فيه شموس العرفان ، وتمكن من حضرة الشهود والعيان ، فهذه سنة الله فى أوليائه وأصفيائه يفرون أولا من الناس حتى يحصل لهم منهم الإياس ثم يردهم الحق إليهم رغمًا على أنفهم لمقام الدلالة والإرشاد ، فينتفع بهم العباد وتحيا بوجودهم البلاد ، وفى مثلهم قال الشاعر :

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا
كَأَنَّكُمْ فى بِقَاعِ الأرضِ أَمْطَارُ
وَتَشْتَهِى العَيْنُ فيكم مَنْظَرًا حَسَناً
كَأَنَّكُمْ فِى عُيُونِ النَاسِ أَزْهَارُ
وَنُورُكُمْ يَهْتَدى السَّارِى بِرُؤيَتِهِ
كَأَنَّكُم فى ظَلَامِ الليلِ أقمارُ
لَا أَوحَش الله رَبْعًا مِنْ زِيَارَتِكُمْ
يَامَن لهُمُ فى الحشَا وَالْقَلْبِ تَذْكارُ

نفعنا الله بهم وحققنا بمعرفتهم آمين .

ثم إذا فتح لك باب الأنس وتشوقت إلى حضرة القدس ، ثم أطلق لسانك بطلبها فاعلم أنه يريد أن يفتح لك بابها كما أشار إلى ذلك بقوله :

[متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك] .

قلت : لأن الحق تعالى جعل الطلب سببًا من الأسباب ، فإذا أراد أن ينجز للعبد ما سبق له فتح له فيه باب الطلب ، فإذا حصل منه الطلب حصل الذى قسم له فى الأزل إظهارًا لحكمته وإخفاء لقدرته وتغطية لسره ، فالدعاء من جملة الأسباب العادية كالحرث والدواء والتزوج فى الولد وغير ذلك وكل ذلك سبقت به المشيئة ونفذ به القضاء والقدر ، فما بقى الدعاء إلا إظهارًا للفاقة وإبقاء لرسم العبودية لا طلبًا لحصول ما لم يكن . جل حكم الأزل أن يضاف للأسباب والعلل .

فمتى أطلق لسانك أيها المريد بالطلب لشىء تجلى فى قلبك أو احتجت إليه فاعلم أن الحق تعالى أراد أن يعطيك ما طلبت منه فلا تحرص ولا تستعجل ، فكل شىء عنده بمقدار ، فإن أطلق لسانك فى الدعاء من غير سبب ، فخير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك كما تقدم .

قال رسُول اللَّه صلى الله عليهِ وسلم : « مَنْ أُعْطِىَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ » وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أُذِنَ لَهُ فى الدُّعَاء فَقَدْ فُتِحَتْ لهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ ، وَمَا سُئِلَ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ العَفْوِ وَالعَافِيَةِ » .

وقال الكتانى رضى الله عنه : لم يفتح الله لسان المؤمن بالمعذرة إلا وقد فتح له بالمغفرة اهـ .

وقال الخفاف رحمه الله : وكيف لا يجيبه وهو يحب صوته ، ولولا ذاك ما منح الدعاء ، وفى ذلك قيل :

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ
مِنْ فَيْضِ جُودِك مَاعَلَّمْتَنى الطَّلَبَا

ثم هذا كله قبل فتح باب المعرفة .

وإذا فتح لك الباب فلا تحتاج إلى طلب لغناك بمسبب الأسباب ، فيكون دعاؤك إنما هو إظهار للفاقة والاضطرار اللازمتين لك مع كل نفس ، وفى كل وقت وحالة كما أشار إليه بقوله :

[العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره] .

قلت : أما وجه كونه لا يزول اضطراره فلتحقق قيوميَّة الحق به إذ الحس لا يقوم إلا بالمعنى ، فحس العبودية لا يقوم إلا بمعنى الربوبية ، فبقدر تحقق العبد بقيومية الربوبية يشتد اضطراره فى ظاهر العبودية . وأيضًا العارف لا يزال فى الترقى ، فهو متعطش للزيادة على الدوام كما قال النقشبندى رحمه الله :

وَذُو الصَّبابَةِ لَوْ يُسْقَى عَلَى عَدَدِ الْأَنْـ
ـفاس وَالكَوْنُ كَأْسٌ لَيْسَ يُرْوِيهِ

وقال آخر :

سَقَانِى الْحُبَّ كَأْسًا بعد كأسٍ
فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلَا رَوِيتُ

وقال بعضهم : لو شربت فى كل لحظة ألف بحر لا ترى ذلك إلا قليلا وتشهد شفتيك يابسة ، وكل ذلك كناية عن عدم النهاية وأن المقصود غير منضبط ، فالعارف لا يزال مفتقرًا للزيادة على الدوام ، فلا يزول اضطراره على الدوام ، وقد قال الله تعالى لسيد العارفين : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنى عِلمًا)[1] .

فالاضطرار إلى زيادة العلم لا ينقطع ولو جمع علوم أهل السموات والأرض . قال تعالى مخاطبًا للكل :

(وَمَا أُوتيتُمْ مِن العِلمِ إلَّا قَليلًا)[2] .

وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره ، فلأن قلب العارف رحل إلى الله من الكون بأسره ، فلم تبق له حاجة إلى غيره ، فقراره إنما هو شهود الذات الأقدس ، فإن نزل إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكن والرسوخ فى اليقين ، فالعارف ليس له عن نفسه إخبار ، ولا مع غير الله قرار . وأيضًا سابق العناية لا يتركه يركن إلى غير مولاه ، فمهما ركن قلبه إلى شىء شوشته عليه العناية ، واكتنفته الرعاية ، فهو محفوظ من الأغيار ، محفوف من كل جهة بمدد الأنوار ، إذ كان الله حرس السماء من استراق السمع ، فكيف لا يحرس قلوب أوليائه من الأغيار ، وما تولاهم بمحبته حتى حفظهم من شهود غيره ، فكيف بالركون ؟ هيهات هيهات ، هذا لا يكون .

---

(١) طه : ١١٤ .

(٢) الإسراء : ٨٥ .

أنوار الظواهر

من كان ظاهره محفوفًا بالأنوار ، وباطنه محشوًّا بالأسرار ، فكيف يركن إلى شهود الأغيار ؟ كما أبان ذلك بقوله :

[أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وآثار السرائر بأنوار أوصافه] .

قلت : أنوار الظواهر ، هى ما ظهر على تجليات الأكوان من تأثير قدرته ، وإبداع حكمته كتزيين السماء بالكواكب والقمر والشمس وما فيها من إبداع الصنع وتمام الإتقان ، وكتزيين الأرض بالأزهار والثمار والنبات وسائر الفواكه ، وكتزيين الإنسان بالبصر والسمع والكلام وسائر ما فيه عن عجائب الصنعة .

قال تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[1] وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرضِ زِينَةً لَها)[2] .

فهذه أنوار الظواهر ، وأنوار الأوصاف هى العلوم والمعارف والأسرار ، والمراد بالأوصاف أوصاف الربوبية كالعظمة والعزة والجلال والجمال والكبرياء والكمال ، وغير ذلك من أوصاف الذات العلية ، والذات لا تفارق الصفات . فإذا أشرقت السرائر بأنوار معرفة الصفات ، فقد أشرقت بأنوار معرفة الذات ، للتلازم الذى بين الصفات والذات .

ثم الناس فى شهود هذه الأنوار الباطنة التى هى أنوار الأوصاف على ثلاثة أقسام : قسم يشهدونها على العبد ، وهم أهل مقام الإسلام . وقسم يشهدونها على القرب ، وهم أهل المراقبة من مقام الإيمان . وقسم يشهدونها على الاتصال ، وهم أهل المعرفة من مقام الإحسان .

فأهل مقام الإسلام أنوارهم ضعيفة كأنوار النجوم ، وأهل مقام الإيمان أنوارهم متوسطة كنور القمر ، وأهل مقام الإحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس .

---

(١) التين : ٤ .

(٢) الكهف : ٧ .

فتحصل أن أنوار الباطن الثلاثة : نجوم الإسلام ، وقمر التوحيد ، وشمس المعرفة ، وإلى هذا المعنى أشار ابن الفارض بقوله :

لها الْبَدْرُ كَأْسٌ وهْىَ شَمسٌ يُدِيرُهَا
هِلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو إذَا مُزِجَتْ نَجْمُ

فالضمير لخمرة المحبة وهى أيضًا شمس المعرفة ، فإذا مزجت لتشرب ظهر نجم الإسلام ، وإذا وضعت فى الكأس طلع قمر التوحيد وهو الإيمان ، وإذا شربت أشرقت شمس المعرفة ، والذى يديرها على الشاربين هلال الهداية ، هذا معنى كلامه فى الجملة ، وتشبيه الأنوار المعنوية بالأنوار الحسية إنما هو تقريب ، وإلا فأنوار القلوب كلها عظيمة حتى قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع ؟

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : لو كشف عن حقيقة الولى لعبد من دون الله . وقال فى لطائف المنن : ولو كشف الحق عن مشرقات قلوب أنوار أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر فى مشرقات أنوار قلوبهم ، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم ؟ الشمس والقمر يطرأ عليهما الكسوف والغروب ، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب ، ولذلك قال قائلهم :

هـذِهِ الشَّمْسُ قَابَلْتَنَـا بِنُورٍ وَلِشَمْسُ اليَقِينِ أَبْهَرُ نُـورَا
فَـرَأَيْنَا بِهـذِهِ النُّورَ لكنَّـا بِهـاتيكَ قَـدْ رَأَيْنَـا المُنيـرَا

فأنار الحق سبحانه ظواهر الكائنات بأنوار الظواهر وهى النجوم والقمر والشمس فى الحسن ، وتزيين الخلق وإبداعه وتخصيصه وتقيده عن شكل معلوم فى الأنوار الخفية ، وتهذيب الجوارح وتطهيرها من الأنوار المعنوية .

وأنار سبحانه القلوب والسرائر بأنوار أوصافه وهى عظمة الربوبية وأوصافها ، فإذا أشرقت فى سماء القلوب الصحبة والأسرار الصافية غاب العبد عن شهود الأغيار وغرق فى بحر الأنوار ، فتفنى الأشكال والرسوم ولا يبقى إلا الحى القيوم .

ثم ذكر الفرق بين أنوار الظواهر وأنوار السرائر فقال :

[**لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر**] .

أى لأجل أن أنوار الظواهر إنما هى أنوار الأثر ومن شأن الأثر أن يتأثر ويتغير بالطلوع والغروب ، فأفلت : أى غربت أنوار الظواهر إما بالغروب المعلوم أو بالعدم المحتوم ، ولم تأفل : أى لم تغرب أنوار القلوب ، وهى أنوار الإسلام والإيمان وأنواز السرائر وهى أنوار الإحسان ، فأنوار الإسلام والإيمان هى أنوار التوجه ، وأنوار الإحسان هى أنوار المواجهة .

فالنور عبارة عن اليقين الذى يحصل فى القلب يثمر حلاوة العمل ، فإذا قوى اليقين قوى النور واشتدت الحلاوة حتى يتصل بحلاوة الشهود فيغطى حلاوة العمل ، فلذلك يقل عمل الجوارح عند العارف ، إذ حلاوة الشهود تغنى عن كل شىء . ليس الخبر كالعيان .

وفى بعض الأحاديث : « سُئِلَ رَسُولُ الله صلى الله عَليه وسلّم أىُّ الأعمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : العِلْمُ بالله ، قَالُوا : يَارسُولَ الله سَألْنَاكَ عَنِ العَمَلِ قَالَ العِلْم بِالله ، ثُمَّ قَالَ فى الثَّالِثَة : عَمَلٌ قَليلٌ كافٍ مَعَ العِلْم بِالله » .

وحقيقة النور فى الأصل كيفية تنبسط من النيرين على سطح الجسم فينكشف ما عليه بواسطة البصر . ثم شبه به العلم واليقين والمعرفة لما بينهما من الشبه فى كشف حقيقة الأشياء وتمييزها ، فالنور الحسى ينقطع بانقطاع أصله ، والنور المعنوى الذى هو نور القلوب لا ينقطع أبدًا ، فلذلك أنشد الشيخ هذا البيت فقاله . ولذلك قيل :

إنَّ شَمْسَ النَّهارِ تَغْرُبُ باللي ـل وَشَمْسَ القُلُوبِ لَيْسَتْ تَغيبُ

وليس هو من عند المؤلف بل هو لغيره ، وسيأتى فى المناجاة بتمامه إن شاء الله .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فشمس القلوب لا تغيب أبدًا ، بل هى

دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها ، وهى معانى الأوصاف الربانية ودوام محالها ، وهى الآفاق الروحانية ، فالمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم ، ومن هذا الوجه كان غنى القوم بالله لا بالأسباب ، وتعلقهم به لا بشىء دونه اهـ . هذا آخر الباب العاشر .

وحاصلها : ذكر كيفية الجزاء على الأعمال ، والزجر على طلبه ، وتحقيق معرفته فى عطائه ومنعه ، والاعتناء بإقباله وقبوله لا بخدمته ودوام الاضطرار بين يديه ، والافتقار إلى نعمته ، والاستيحاش من خلقه بدوام أنسه ، ثم إشراق أنواره على قلوب أوليائه وأسرار أصفيائه ، جزاء لإقبالهم عليه وانحياشهم إليه . فإذا أتحفهم بذلك وهيأهم لما هنالك ، تلا عليهم قوله :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ)[1] الآية .

---

(١) البقرة : ٢١٤ .